دلالات الرمز والمصطلح وجمالية اللغة الصوفية في رواية "سفر السالكين" لـ: محمد مفلاح.

The connotations of the symbol, the term, and the aesthetics of the Sufi language in the novel "safar al salikin" by: Mohamed Meflah.

محمد الأمين بركات[1,*]، حاتم زيدان[2]

[1] المدرسة العليا للأساتذة مستغانم mohamedelaminebarkat1991@gmail.com

[2] جامعة ورقلة Zidanehatem95@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2022/09/01 **تاريخ المراجعة**:2022/10/09 **تاريخ النشر**: 2022/12/31

ملخص:

ظهر -في الآونة الأخيرة- شكل جديد من الرواية يعرف بالرواية العرفانية، حيث يستعين الروائي في كتابتها بالخطاب الصوفي شعرا ونثرا، ويشتغل على مفاهيمه ورموزه وتوظيف كل المعارف الصوفية والاستفادة من التراث الإسلامي ككل؛ فتتناول بذلك سير بعض العلماء أو المفكرين المسلمين أو المتصوفة، وكذا التطرق إلى تجاربهم السابقة، وصياغتها صياغة جديدة، في طابع فني أدبي جديد، ولعلنا نجد رواية)سفر السالكين) التي نحن بصدد دراستها للروائي والكاتب الجزائري "محمد مفلاح" قد لامست بعض خصائص الرواية العرفانية؛ منها اللغة والرمز الصوفي، وكذلك توظيف بعض الأحداث التاريخية، وسرد سير بعض كبار المتصوفة بصيغة فنية جمالية، ومن هنا جاء موضوع دراستنا المعنونة بـ: دلالات الرمز والمصطلح وجمالية اللغة الصوفية في رواية "سفر السالكين" لـ: محمد مفلاح، والتي سنركز فيها على شيئين مهمين ألا وهما؛ الرمز والمصطلح الصوفي وسنشتغل على دلالة كل منهما، إضافة إلى تبيان جمالية توظيف مكونات الخطاب الصوفي في هذه المدونة.

الكلمات المفتاحية: دلالة، الرمز، المصطلح، التصوف، رواية، مفلاح.

Abstract:

Recently, a new form of the novel has appeared, known as the mystical novel. In writing it, the novelist uses the Sufi discourse in poetry and prose, and works on its concepts and symbols, employing all mystical knowledge and benefiting from the Islamic heritage as a whole; Thus, it deals with the biographies of some Muslim scholars or thinkers or mystics, as well as touching on their previous experiences, and formulating them in a new formulation, in a new literary character, and perhaps we will find a novel (Safar Al-Salikeen) The one we are going to study by the Algerian novelist and writer "Mohamed Meflah" has touched upon some of the characteristics of the mystical novel; Including language and symbol, as well as employing some historical events, and narrating the lives of some of the great Sufis in an artistic and aesthetic form, and from here came the subject of our study entitled:

*المؤلف المراسل

The connotations of the symbol, the term, and the aesthetics of the Sufi language in the novel "safar al salikin" by: Mohamed Meflah. which In it, we will focus on two important things: The symbol and the mystical term, and we will work on the significance of each of them, in addition to showing the aesthetics of employing the components of the Sufi discourse in this blog

.***Key words**: Indication, Symbol, Term, mysticism, a novel, meflah.*

تقديم:

يعدّ الروائي الجزائري "محمد مفلاح" أحد أبرز الروائيين الجزائريين الذين حاولوا تطوير وتقديم وجه مغاير للرواية الجزائرية في مقابل ما ينتج في هذا الفن خاصة عربيا، فللروائي الجزائري العديد من الروايات التي كتبها عبر ما يسمى التجربة الروائية، ومنها: بيت الحمراء، الانهيار، هموم الزمن الفلاقي، خيرة والجبال، الكافية والوشام، الوساوس الغريبة، هوامش الرحلة الغريبة، سفر السالكين، شبح الكاليدوني. ولم يتقلد "مفلاح" اتجاها واحدا عبر تجربته الروائية فقد كان واقعيا في بداية كتابته إلى أن وصل إلى ما يسمى التجريب وذلك حينما كسر القواعد السائدة التي كانت موجودة في الرواية التقليدية –خاصة فيما يتعلق بالموضوع- وذلك بتناوله لموضوع التاريخ المهمش (المنسي) من خلال روايتي شبح الكاليدوني وسفر السالكين، وهذه الأخير التي نحن بصدد دراستها تناول فيها الروائي التاريخ الجزائري المهمش وكذلك هي رواية صوفية بامتياز لما تحتويه من رموز ومصطلحات صوفية، إضافة إلى توفرها على مصادر ومكونات الخطاب الصوفي، لذلك سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية البحث في جمالية اللغة الصوفية في هذه الرواية من خلال الدلالة التي يحملها كل رمز وكل مصطلح صوفي داخلها.

أولا- اللغة التواصلية للخطاب الصوفي:

لحدوث عملية التواصل بين مرسل ومرسل إليه، لابد من وجود لغة معينة، ويجب أيضا أن تكون هذه اللغة مفهومة لتتم هذه العملية التواصلية، فاللغة كما يقول ابن جني: «هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[(1)]، فالتواصل لا يحدث إلا بوجود لغة بين طرفين أو أكثر شفاهيا أو كتابيا أو إشاريا، وقد لا تكون اللغة مجدية في عملية التواصل في بعض الأحيان عندما تتعلق هذه العملية التواصلية بالإشارة كما يحدث عند الصم البكم على سبيل التمثيل، أما فيما يخص عملية التواصل عن طريق الكتابة فإن المرسل والمرسل إليه في هذه العملية غير متقابلين حتى يتواصلا باللغة.

و تتعدد الكتابات، وما يهمنا هو الكتابة / النص الصوفي لمعرفة كيف يتواصل الصوفي مع المتلقي لنصه أو خطابه؛ لأن النص الصوفي يحتاج إلى تأويل وأعتقد أن المتصوف لم يأت بهذا النص لكي يفهم ظاهريا، وإنما يخبئ في باطنه قراءات عديدة يصعب على القارئ العادي فهمها واستيعابها من أول قراءة، خاصة إذا تخلل هذا النص مجموعة من الطلاسم فالذات المتصوفة تحاول دائما التطلع إلى ما هو غيبي «وفي هذا المجال بالذات نجد غالبية المتصوفة لا يتعاملون مع عالم الحق مثلما هو عليه الحال، وإنما يستخدمون اللغة الباطنية، الروحية

والروحانية "لعالم الحق"، على أساس أنها تمتاز على حد تعبير نيكلسون بقدرة فائقة على إثارة الوجدان والخيال، ومن ثم لا يجوز للغير أن يقوم بتأويل هذه اللغة الباطنية-الحق- الصوفية على أساس المدلول الظاهر للألفاظ»[2]. فاللغة الصوفية لغة نابعة من ذات الصوفي الغامضة ومن وجدانه مؤثرة في المتلقي ومخاطبةٌ مستفزة له.

يعبر الصوفي باللغة الشعرية فيكتب نصه شعرا أو نثرا، لكن هذا النص على اختلافه لا يكون سهل الفهم ولا سهل القراءة من قِبل غير العارفين باللغة الصوفية -المعبرة عن أشياء كامنة داخل ذات صاحبها- ومن هنا أنتجت عبارات وألفاظ نستطيع أن نقول إنها من نتاج هذه الفئة بعد تجاوز مشاكل اللغة بالنسبة للمتصوفة ككل، ولعل لغة الخطاب الصوفي «هي لغة تختلف عن اللغة الدينية الشرعية من حيث أن هذه اللغة هي في جوهرها، لغة فهم، بينما الأولى هي في جوهرها هي لغة حب، الأولى تحب الأشياء دون أن تفهمها بالضرورة بينما علاقة الثانية مع الأشياء والكون إنما هي علاقة فهم، وإدراك وتقويم لا علاقة حب، والحب (...)يعاش، تقال صور منه(...)أنه خارج طور أو حدود العقل والمنطق، أي خارج حدود الكلام»[3].

تختلف اللغة الصوفية عن اللغة الدينية؛ فالأولى وصفها "أدونيس" بأنها لغة حب تختلف عن لغة الدين الشرعية؛ لأنه يراها لغة فهم، فاللغة الصوفية تأتي من تجربة يعيشها المتصوف «يحاول فيها التماهي مع المطلق، أما اللغة الثانية تصدر عن تجربة في الوصف والتشريع تؤكد الانفصال والبعد الكاملين عن المطلق»[4]. فالاتجاه الصوفي كسائر الاتجاهات والمذاهب الأخرى يعبر باللغة، حيث كان لأصحاب هذا الاتجاه أن كتبوا الشعر الصوفي، وكتبوا قصصا وأدعية ومناجاة وحكم وأخبار، وهدفهم في هذا كله كان واحدا، وهو إيصال فكرتهم، والتي تتمثل في كيفية التعبير عن تجاربهم في الاتصال بالله؛ لأن هذا الاتصال هو مبتغاهم واعتقادهم الذي يصبون إليه، لذلك لا يجب أن نقع في الخطأ ونقول: إن الخطاب الصوفي هو خطاب يسير بالموازاة مع الدين الشرعي، ودليل ذلك أن الخطاب الديني الشرعي لا يمكن مزجه بالتخييل[5]، فالخطاب كما تُظهر لنا نظرية التواصل هو «رسالة بين مرسل ومتلق تنجز بوسائل داخل سياق محدد في المكان والزمان قصد التبادل والتبليغ»[6]، فالمرسل والمتلقي هما عنصران مهمان في العملية التواصلية، التي تفرض وجود لغة معينة وهذه الأخيرة كما يقول سارتر: «هي أصلا الوجود للغير(...)لا يمكن للغة(...)أن تكون مخترعة لأنها تفرض أصلا علاقة بذات أخرى»[7]. فمن مميزات اللغة؛ الحوار فوجود مرسل يوجب ويستلزم وجود متلقي، لكن لغة المتصوفة بطبيعة الحال هي لغة تختلف عن لغة بعض الاتجاهات الأخرى، فكثير من الألفاظ والمصطلحات الصوفية لا نصل إلى معناها إلا بالتأويل، لأنه ليس من السهل إدراك معناها من الوهلة الأولى، فاللغة الصوفية لغة عميقة في مضمونها وإيحاءاتها ومرد ذلك؛ الأذكار والمجاهدات والحكم والأشعار والقصص والرياضات والخلوات...إلخ، ونجد "الحلاج" الذي دفع روحه من أجل هذه اللغة الصوفية حين تأزمت اللغة في القرن الثالث بالضبط في

نصفه الثاني «فلم يعد بإمكان اللغة العادية أن تصور الحقائق الصوفية التي يود أهل الطريق البوح بها»[8]،فالحلاج كان من أوائل المتصوفة الذين أخذوا على عاتقهم مشكلة اللغة ويعود له الفضل في الدفاع عن اللغة الصوفية وهو القائل:

«لِلْعلْم أَهْلٌ وللإيمان تَرْتيبٌ وَلِلعُلُومِ وأَهْلِهَا تَجَاريبُ»[9].

إن النص/اللغة الصوفية، جاءت من تضافر جهود المتصوفة الذين دافعوا عنها بتعبيرات عديدة وكتابات متنوعة، مختلفة أشكالها من شعر و نثر وغيرهما، ولقد أشرنا في أسطر مضت إلى أن الحالة السيكولوجية (النفسية) للمتصوفة لها دور في إنتاج الألفاظ التي يتلفظ بها الصوفي؛ لأنها مستخلصة من الوجدان، وجاءت نتيجة لمجموعة من الأفعال والممارسات، فهي كلمات وجدانية ليس من السهل أن يتلفظ بها أي كاتب إلا إذا كان متبعا للمنهج الصوفي وعالما بأحواله فـ«المتصوفة يأخذون بالمجاز وليس غير، بمعنى أن ألفاظهم وعبارتهم متقلبة بتقلب أحوالهم الوجدانية»[10]، لذلك كانت اللغة الصوفية عميقة بمعانيها ودلالاتها، ولفهم الخطابات الصوفية المتنوعة لابد للمتلقي أن يكون على دراية مسبقة بهذا المنهج، أو الاتجاه.

ثانيا- رمزية اللغة في الخطاب الصوفي:

للخطاب الصوفي خصائص تميزه عن بقية الخطابات الأخرى السياسية، أو الفلسفية أو الأدبية ، ومن بين هذه الخصائص اللغة الرمزية المليئة بالدلالات والإيحاءات، وهذا ما أكسب لغة المتصوفة رؤية رمزية كلغة "البسطامي" و"ابن عربي" و"الحلاج" و"الجنيد" وغيرهم «فالرمزية الصوفية بكل خصائصها قد عبرت عن أوجه الحياة بطريقة غير مباشرة، ويبقى التوجه للصوفية ليس لحاجات تعبيرية فقط بل لحاجات روحية وذلك خروجا من وطأة المبادئ العقلانية، فهي تمرد اجتماعي فني»[11] . ومن ثم فاللغة الصوفية لغة جمالية روحية مفعمة بالرموز والدلالات فنجد مثلا رمز «المرأة/ الجسد/ الخمرة/ الوردة/ المحبوب/ الشوق/ الغربة/...كل تلك الدوال صارت مدلولات أخرى وأصبحت نسقا رمزيا»[12]، إذن اللغة الصوفية تحمل ألفاظا لها إشارات تحيل إلى معاني غير مباشرة، وبالتالي فالخطاب الصوفي يتكون من رموز غنية بالمعاني كالخمرة والمرأة مثلا، وله رموز أخرى تم استقاؤها من الطبيعة ووضعت في خانة الألفاظ والمصطلحات الصوفية.

يتميز الشعراء الصوفيون في كتاباتهم بطغيان الرمز على نصوصهم الشعرية، ولعل السر في وجود سمة الرمزية في الخطاب الصوفي واللغة الصوفية هو أنهم عاشوا «في عوالم روحية ووجدانية وانفعالية مفارقة لما هو مألوف فبديهي إذن أن تكون وسائطهم التعبيرية مفارقة أيضا»[13]، وهذا ما جعل من الخطاب الصوفي يكتسي بعض الغموض الذي هو نتاج هذه الإشارات والرموز.

وما يميز النص الصوفي عن غيره من النصوص كالنص الأدبي مثلا هو ذلك الاختلاف الموجود حتى بين رموز النصين –الأدبي والصوفي- لأن الرمز الصوفي نابع من معرفة الصوفي وبلاغته، ويختلف هذا الذوق من متصوف إلى آخر، فتعبير الصوفي يكون بلغة روحية ووجدانية زاخرة بالإشارات «فهي ذاتها مفعمة بقدر كبير من الدلالات الرمزية التي تزداد خصوبة وإيحاءً وامتلاءً في التركيب الأسلوبي للنص نثرا كان أم شعرا»[14]، فلولا ثراء اللغة في حد ذاتها لما وجد للرمز معنى حتى ولو كان يحمل دلالات وإيحاءات ومعاني.

يجعل الصوفيون من لغتهم لغة رمزية ذات إشارات صعبة على غير المتصوفة لأنهم يعتمدون في كتاباتهم على الرمز ويجعلون من كل شيء في هذا الكون رمزا سواءً تمثل هذا الترميز في عدد معين أو حرف أو لفظ، حتى إن المتصوفة يجعلون من أشياء غيبية رموزا يضيفونها على لغتهم وخطاباتهم فتزيد نصوصهم تمنعا وعمقا ودلالة وإضماراً حيث ويقول: «القناد– وهو مخضرم القرنين الثالث والرابع- هجري.

إِنْ نَطَقُوْا أَعْجَزَكَ مَرْمَى رُمُوزِهِمْ وَإِنْ سَكَتوُا هَيْهَاتَ مِنْكَ اتصاله»[15].

وهذا يدل على تشفير نصوصهم وأقوالهم فإن تكلموا -نطقوا– أعجزوا السامع وإن كتبوا أبهروا القارئ/المتلقي، فاللغة الصوفية المرموزة مستوحاة من عمق التجربة لدى المتصوف، فهي لغة «رمزية/مجازية ذات دلالات كثيرة قابلة لأكثر من تأويل تتميز بالتخيل والتمثيل والتشبيه، لهذا فهي عينة بلاغية خصبة، فإذا كانت اللغة عند سوسير نظاما من الإشارات، فإن المتصوفة من أجل التعبير عن أفكارهم، استخدموا في لغتهم واستعاراتهم إشارات ودلالات تختلف عن استعارات الأدب والفلسفة ودلالتهما، بحث تشكل هذه الاستعارات»[16]، ولا تقبل تأويلا واحدا، إنما تتعدد التأويلات فيها؛ لأن عالمها غامض غموض العالم الواقعي المحسوس.

وقد استخدم المتصوفة في «لغتهم واستعاراتهم إشارات ودلالات تختلف عن استعارات ودلالات الأدب والفلسفة والسياسة ودلالاتهما بحيث تشكل هذه الاستعارات في تركيبها وتكوينها سياقا خاصا»[17]، فلو كانت استعارات ومجازات ودلالات اللغة الصوفية نفسها استعارت ومجازات اللغة الوضعية أو لغة السياسة أو اللغة الفلسفية لكان من السهل فهمها؛ لأن هذه اللغة «تكونت من منظور صوفي خاضعة لسلسلة من الاستعدادات والممارسات الخاصة فالنص هنا لا يتكون بعد إجهاد عقلاني وتخطيط إنشائي مسبق بل من إجهاد/استعداد روحي وراء النظر العقلي، على ضوئه نحتاج إلى فهم التجربة الصوفية لأن الكلمة أو الشيء عندهم»[18]. وفي تقدير أسماء خوالدية «لا يمثلان الدال والمدلول...بل هما يستمدان معناهما من خلال التمثيل الثقافي»[19]، بمعنى أن اللغة الصوفية لم تتكون من جهد عقلي كما عند الكتاب والمفكرين مثلا، وإنما ولدت من استعداد روحي باطني بعيد عن العقل، وولدت أيضا من تجربة المتصوف، لأن التعبير عن هذه التجربة هو نقل هذه الأخيرة من العالم

الحسي(الذاتي)إلى العالم التعبيري(اللغوي)،فتتطابق هذه الذات مع اللغة ويتطابق الحس مع التعبير أو كما تسمى الرجوع من العمق إلى الأفق، فمسيرة هذا الرجوع هو المجال الذي تولد فيه هذه اللغة أو النص الصوفي من هذه العلاقة والتطابق جعلت للصوفية لغة خاصة بهم يعبرون بها عن مشاعرهم وأذواقهم الداخلية[20]، وانْتُقِد المتصوفة على هذه اللغة المشفرة حيث ترتكز الانتقادات «أولا على أساس(اللغة التعبير/الأسلوب/الغموض/الترميز...) لأن اللغة التي يمتلكها المتصوفة تختلف عن كتابات غيرهم، فالآخر يطبق تمثيلا ثقافيا معجميا أو لغويا خارج التصوف»[21].

وقد أشرنا آنفا إلى أن اللغة الصوفية أو ما يقوله الصوفي يختلف عن ما يقوله شخص آخر في أي مجال كان، وما يكتبه المتصوف ليس ما يكتبه الشاعر العادي أو الأديب، وقد كَوَّنَ/أنتج الصوفية أدبا خاصا بهم «يتجه(...) اتجاها رمزيا في معالجة الظواهر الكونية وفي التعبير عن التجربة الروحية التي يمارسها العارفون من الصوفية»[22].

فالأدب الصوفي صار له وزن بعد أن جعل لنفسه مكانةً بين الآداب الأخرى، فبداية هذا الأدب كانت مع القرنين الثالث والرابع الهجري، مع بعض الأعلام النوادر الذين كانوا سباقين لابتداع هذا الأدب الذي يرتبط ارتباطا بالدين الإسلامي، حتى إن المتصوفة يعتقدون أن الله خصهم بالذكر في بعض آياته المنزلة من فوق سبع سماوات.

إن المتلقي للنص الصوفي أو لرمزيته لا يواجه ظاهر اللفظ المرموز فقط، وإنما يواجه بواطن الألفاظ «فما النص الرمزي على صورته الخطية إلا الظاهر، أما الباطن فهو النص الغائب الذي يتعالى عن مقتضيات السياقات اللغوية والإيقاعية نص لا يملك زمامه إلا صاحبه أوان التجربة أمّا متى كتبه صار-في رأينا- نسخة ممسوخة غامضة يجهد القارئ أيّما جهد في تدبّرها فَهْمًا وتفسيرا وتأويل منطلقا من عناصر غير محددة ليعيد بناء معانيها من جديد بما يتناسب مع أفقه الخاص»[23].

فهذا النص المصبوغ بصبغة الرمزية لا يمكن القبض عليه، وكأن النص/اللغة الصوفية وخاصة الجانب الرمزي منها، أو الألفاظ الرمزية هي من تواضع أهل الصوفية لذلك تصعب هذه اللغة –على كثير من الأشخاص إلا أهل الاختصاص- بإشاراتها وألفاظها ورموزها وحروفها وأعدادها، وحتى أهلها يتميزون بالغموض في كتاباتهم ومخاطباتهم.

ثالثا- دلالة الرموز والمصطلحات الصوفية في رواية سفر السالكين:

1- دلالة الرموز الصوفية:

قبل أن نتطرق إلى الرمز الصوفي، سنحاول تعريف الرمز عامة، وقد ورد الرمز في جانبه الاصطلاحي على أنه «الإيحاء أي التعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المستترة التي لا تقوى على أدائها اللغة في دلالتها الوضعية»[24]. بحيث يكون الرمز إيحاءً، فهو يخرج من دلالة اللغة الوضعية إلى دلالاتها الإشارية الموحية غير المباشرة، ويكون معناه خفيا باطنيا، فالوصول إلى ذلك المعنى لأمر صعب؛ لأن الرموز الصوفية غير مفهومة نوعا ما لذلك نجد كثيرا من الباحثين في هذا المجال يحاولون تأويلها وإيجاد قراءات لها، وتحتاج في حل شفراتها إلى أهل الاختصاص والبحث في فرقه وفكرها، فالرمز «هو المعنى الباطن المخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهلُهُ»[25].

إذن فالرمز الصوفي له معنيان؛ معنى باطني/خفي/مضمر ينطوي تحت لفظ ظاهر، وليس كل قارئ يمكنه الوصول إلى هذا المعنى الخفي، ومعنى ثان ظاهري لكنه لا يبوح بالدلالة كلها، ورغم ذلك يبقى القبض على الرموز كلها والرموز الصوفية على وجه التحديد لأمر بالغ الصعوبة، ومن ثم فالرمز عند الصوفية «لا يستخدم (...) لذاته وإنما هو إشارة/مطية إلى معانٍ أخرى مقصودة بذاتها، وهو ينتمي إلى حقول بحث متعددة ومتشبعة جدا، ناهيك عن كونه نتاج حالة إنسانية فريدة خارج الإدراك المباشر للقارئ، وعلى هذا الأساس فإن للرمز معنىً ظاهريًا ومباشراً وآخر باطني وغير مباشر، فهو ليس حقيقة ظاهرة، بل هو حجة وبرهان قائم بذاته على المعاني الخفية»[26]. فالرمز عند الصوفية لا يمكن أن يفسر ذاته، بل هو إشارة إلى معانٍ أخرى مقصودة، ويختلف الرمز الصوفي من متصوف إلى آخر، والرموز التي يطلقها الصوفية ليست في المتناول؛ لأنها قد تكون نتاج الحالة الروحية للمتصوف، فالخلوة مثلا هي رمز للتعبد والابتعاد عن الدنيا فما دام أن بعض الأفعال عند الصوفية كالقول بالحلول والاتحاد والفناء غير مفهومه نوعا ما، فإن رموزهم تبقى غامضة في كثير من ا أحايين فـ«تجاوز الظاهر أمر معروف عند الصوفية، والمعاني التي قصدوها ما هي إلا صورة عن الباطن، وعدم توظيف الرمز هو الكفر بعينه وقد نظم ابن عربي في هذا السياق»[27].

يقول في هذه الأبيات:

«ولولا اللغز كان القول كفرًا وأدى العالمين إلى العنادِ

فهمْ بالرمزِ قد حسبوا فقالوا بإرهاقِ الدماءِ بالفسادِ»[28].

ويبقى الرمز الصوفي حاملا لخاصية العمق، فهو أعمق من باقي الرموز الأخرى حتى الأدبية منها، لذلك نجد لغة الشاعر الصوفي أو المتصوف تتجاوز الظاهر إلى ما هو باطني، ويبقى البحث عن المعنى في هذه اللغة أمر صعب، وهذا ما زاد في جمالية النص/اللغة الصوفية (الرمزية).

والملاحظ على النصوص/اللغة الصوفية ثراؤها بالرموز، سواءٌ العددية أو الحروفية منها، ولا يكاد يخلو نص صوفي من رموز تتخلله، ويبقى الرمز الصوفي «الأكثر ذهابا في الغموض لأنه يستمد طاقته من ذاتية صاحبه ولأنه لا يقتصر على دور الإشارة إلى مضمون أو التمثيل له وإنما هو كيان خاص/حقيقة مستقلة غير قابلة للتحديد بدقة لأنه لو كان شأنه كذلك لكان مجرد دليل مباشر لشيء ما»[29]. فالرمز الصوفي من أصعب الرموز على الإطلاق، لذلك يجب على الباحث في جانب الرموز الصوفية، أن تكون له معرفة تامة بالصوفية وبمعارفها وتجارب متصوفيها، وقد عمل "محمد مفلاح" على توظيف العديد من الرموز في المدونة سنذكر البعض منها: ونبدأ برمزية "الجبل"، فهذه اللفظة نجدها قد تكررت في العديد من المواضع، نتأمل مثلا قول الروائي في هذا الشاهد: «هذا الجبل رابط عليه سادتي العلماء»[30]، ويذكر كذلك: «ثم نزور مقام سيدي عبد القادر مولى جبل المايدة"[31]، وكذلك قوله: «واتجهت نحو جبل صخري فصعدته»[32].

فالجبل رمز من الرموز الصوفية، فزيارة الجبل مصدر من المصادر الصوفية كذلك حيث تماثلوا فيها مع ديانات أخرى، فكثيرا ما نسمع عن السالكين صعودهم الجبال والمكوث في المغارات، فالجبل يرمز إلى العزلة و الانفراد عند الصوفي؛ لأن المتصوف يجد في هدوء الجبال راحته، ويبتعد عن الضجيج ليختلي بنفسه في الجبال والخانقاوات ويتعبد هناك، كما أن الجبل يرمز للقوة والشدة، فصلابة الجبل كصلابة قلب الصوفي، شديد وممتنع اتجاه الشهوات والملذات الدنيوية.

ونجد أيضا لفظة الخلوة حيث يقول "الهاشمي المشلح": «وانتقلت إلى الخلوة بالعبادة دخلتها مستعينا بضوء هاتفي المحمول وجدت نفسي وحيدا في الخلوة الهادئة جلست على تربتها الرطبة، ثم قرأت بعض السور القصار من القرآن الكريم. قضيت وقتا طويلا متأملا حياتي الجديدة»[33].

فالخلوة هي رمز من الرموز الصوفية، فهي توحي إلى العبادة وإلى السفر الروحي الذي يأخذ أو ينقل الصوفي من العالم المحسوس المادي/الواقعي إلى عالم آخر، أو كما يقول "الهاشمي المشلح": «إلى ملكوت الصفاء ؟!»[34]، و هي تجعل الصوفي ينسى وينقطع عن العالم الخارجي الذي يعيش فيه، ويحاول الوصول إلى درجة عالية من الصفاء الروحي ينقي فيها ذاته من كل شوائبها و أدرانها الدنيوية، ومن ثم فالخلوة رمز للعزلة والابتعاد عن كل شيء في هذه الدنيا الفانية؛ لأن الصوفي يجد راحته ويتلمس ذاته الحقيقية في عزلته.

ونلحظ أيضا لفظة "السفر" في العنوان الخارجي للمدونة، فهي عبارة على استباق خارجي قبل الولوج إلى متن الرواية (سفر السالكين)، فكلمة السفر ترمز إلى التجدد والتغيير والاكتشاف، والسفر عند الصوفية سفران؛ واحد واقعي (مادي) يمكن أن يندرج ضمن تعذيب الجسد ويكون للدربة والتعلم، والثاني روحي يغادر فيه الوعي الجسد ويغيب الصوفي عن وعيه وصولا إلى درجة الفناء في الوجود.

والسفر كذلك رمز من الرموز الصوفية ومصدر من المصادر التي تتماثل فيها الصوفية مع الديانة الهندية، حيث يذكر الروائي هذه اللفظة كثيرا في متنه الروائي فنرى على سبيل التمثيل قول "الهاشمي المشلح" في هذا الشاهد: «هذه الأسفار الطويلة (...) السفر كما قال سيدي الشيخ يسفر عن معدن الإنسان (...) ثم سألتني عن سياحتي فرويت لها كل ما رأيته في هذا السفر المبارك (...) عندما تراني وأنا أستعد للقيام بأي سفر تجري إلى الحقيبة الجلدية وتضع فيها أشيائي المتواضعة»[35]، وقول "المشلح" أيضا في هذا الشاهد الثاني: «في هذا السفر المبارك»[36].

وذكر الروائي العديد من الألفاظ التي ترمز إلى العبادة والصبر وقوة التحمل والصدق في الطريقة وهي «الجوع، السهر، الصمت»[37]، فهذه الألفاظ التي يقوم بها الصوفي كأن يُجوّع نفسه ويسهر كثيرا، فهو بذلك يتعب بدنه ويعلم نفسه الصبر والتحمل ويبعدها بهذه الأفعال عن الأمور الدنيوية.

كما ذكر الروائي اللون الأبيض أيضا، فهذا اللون له رمزية خاصة فهو يرمز للصفاء والنقاء حيث يقول الروائي: «يلبسون الأبيض»[38]، فالمتصوف يسعى دائما إلى أن يكون قلبه نقي وصافي كصفاء اللون الأبيض ويسعى كذلك إلى أن ينقيه من كل الأدران والشوائب الدنيوية، ويرمز اللون الأبيض أيضا إلى كفن الجسد وكأن هناك علاقة بين لون هذا الكفن وبين روح الصوفي أو المريد حينا تغادر هذه الروح الجسد إلى بارئها لذلك تصبو هذه الروح أن تلقى الخالق كما بعثها أول مرة إلى هذا الوجود.

وقد ذكر الروائي أيضا لفظة "الطير" في قوله: «هذه نوبتي حمدت الله وتحركت في اتجاههم، ولكنهم ابتعدوا عني قليلا. أسرعت الخطى نحوهم طاروا على بعد مسافة قصيرة، ثم حطوا على ربوة (...) ركضت للحاق بهم طاروا مرات أخرى فجريت خلفهم (...) كما صادفت طيوراً (...) وجريت جريت حتى طرت، صرت عصفورا مغردا في سماء فسيحة صافية»[39]، وقوله أيضا: «تسبح بين أسراب طيور»[40]، فلفظة الطير أو الطيور ترمز للأرواح البشرية أو أرواح المتصوفة، لذلك نجد قول الصوفي في كثير من الأحايين طرت وحلقت في السماء وكذلك قوله أسبح في الفضاء الفسيح، فروحه هي التي تحلق/تسبح/تطير في الفضاء الفسيح على حد قوله وليس جسده، وقد ترمز أيضا لفظة الطير أو الطيران إلى العلو والشموخ والصفاء أو النقاء.

وهناك رمزية عددية تمثلت في الرقم "7" يمكن أن نستخلصها من خلال عدد شخصيات الرواية الأساسيين، وهم سبعة بدءا بالهاشمي المشلح وانتهاءً بتهامي الفارس فالعدد سبعة يمكن أن يرمز إلى العديد من الأشياء فالسماوات سبعة وعدد أيام الأسبوع سبعة أيام وعدد أبواب جهنم سبعة أبواب، وهو كذلك رقم معجزة ذكر في القرآن الكريم...إلخ، وكذلك وجود رمزية بالصور تمثلت أيضا في العدد "7" فنلاحظ على غلاف الرواية الخارجي وجود سبعة طيور بيضاء محلقة فاتحة الجناحين، وهنا يحدث تطابق بين عدد الطيور في الغلاف الخارجي وعدد الشخصيات الأساسية داخل العمل الروائي، فالرقم سبعة (7) هو «عدد السماوات، وهو عدد أبواب جهنم وعدد مرات السعي بين الصفا والمروة وهو عدد مرات الطواف حول الكعبة وهو عدد أيام الأسبوع»[41].

إن الرمز الصوفي متعلق بتجربة المتصوف في حد ذاته، فالصوفي يعيش تجربة تجعله يعبر عنها بواسطة الرمز وكثيرا ما كانت الرموز الصوفية تحمل إيحاءاتٍ ودلالاتٍ عميقةٍ تعكس حالة المتصوف الروحية والوجدانية.

2- دلالة المصطلحات الصوفية:

لكل نص سواء كان شعريا أو نثريا مصطلحات معينة، فالنص الفلسفي أو السياسي أو الديني يعرف من ألفاظه ومصطلحاته، وكذلك النص الصوفي أيضا له مصطلحات خاصة، وهذه الأخيرة ليست سهلة، فالمصطلح الواحد له «مجموعة من الدلالات المتمايزة باعتبار المقامات والمنازل، أو السياقات المتنوعة»[42]، والمصطلح الصوفي الواحد يحمل دلالات متنوعة، وذلك راجع إلى المقامات أو المنازل وربما إلى السياقات، و«هذه المصطلحات التي تتنوع مدلولات كل واحد منها بحسب المقامات والمنازل أو قل بحسب السياقات المتنوعة هي من الكثرة بحيث تعد ظاهرة ينفرد بها المصطلح عند الصوفية وهو ما لا يحدث في مصطلحات العلوم أو الفنون الأخرى إلا في حالات قليلة»[43].

و يختلف المصطلح الصوفي عن غيره في المصطلحات، خاصة في المعنى الدلالي، وهذه الظاهرة تَقِلُ في المصطلحات الأخرى، و «لا يمكن أن يدرك معناه المحدد إلا من له ثقافة صوفية واسعة أما بالنسبة للقارئ العادي فإنه لا يستطيع أن يدرك جزءاً من مدلول المصطلح»[44].

وقد عمل "محمد مفلاح" في نصه السردي على توظيف العديد من المصطلحات وأول مصطلحين يمكن أن نذكرهما يظهران من خلال عنوان الرواية (سفر السالكين) أي السفر والسالك، لذلك سنحاول أن نستخرج البعض من المصطلحات الصوفية الموجودة في المدونة من خلال الشرح الآتي:

- **الصوف:** الصوف هو لباس خاص بالصوفية وسموا صوفية للبسهم الصوف.

- **الضريح :** أو الأضرحة يتخذها الصوفية مزاراً لهم.

- **الكرامة:** هي الأشياء الخارقة التي لا يستطيع عليها باقي البشر.

- **الحضرة:** عبارة على تجمع يقوم به الصوفية الذين ينتسبون إلى طريقه معينة.

- **القبب:** جمع قبة والتي تقام فوق قبور الأولياء الصالحين.

- **الذكر:** بالذكر يتقرب الصوفي إلى الله عز وجل مثل قراءة القرآن والتسبيح.

- **السكر :** حالة يصل إليها المتصوف يغيب فيها عن الوعي ويكون هذا السكر معنويا.

- **الزاوية:** وهو البناء المخصص لإقامة ذكر الله سبحانه وتعالى والصلاة وتلاوة القرآن الكريم (...) وهناك الكثير من الزوايا الصوفية المنتشرة في سوريا والمغرب، ومصر والصحراء الكبرى...» .[45]

- **الولي:** «وهو العبد الذي يتولى الله سبحانه أمره فلا يكله إلى نفسه لحظة ومن يتولى عبادة الله تعالى وطاعته، فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان» .[46]

- **وِرد:** «جمعه أوراد، ويطلقه السادة الصوفية على أذكار يأمر الشيخ تلميذه بذكرها صباحا بعد صلاة الصبح، ومساءاً بعد صلاة المغرب» .[47]

- **ولاية:** «يعني قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه، وقيل تولي الحق سبحانه وتعالى بظهور أسمائه وصفاته عليه، علمًا، وعلنًا، وحالًا، وتصرفًا» .[48]

- **وجود:** «هو عبارة عن فقدان العبد بمحاق أوصاف البشرية، ووجود الحق سبحانه وتعالى، وهو يأتي بعد الارتقاء عن الوجد، وهو أخص من الوجود والوجدان، لدوامه بدوام الشهود واستهلاك الوجد فيه وغيبته عن وجوده بالكلية» .[49]

- **العزلة:** «حيث لابد للمريد في ابتداء حاله من العزلة، ولا يقصد بها اعتزاله عن الخلق لسلامة الناس من شره أو سلامته من شرهم وإنما اعتزال الخصال المذمومة» .[50]

يمثل هذا شرح بعض المصطلحات الصوفية التي صادفتنا في المدونة، ومنها على سبيل التمثيل الحضرة الصوفية والضريح والقبب... ، واعتمدنا في شرح هذه المصطلحات على معجم الصوفية لممدوح الزوبي.

خاتمة:

توصلنا في نهاية هذه الورقة البحثية إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- أن اللغة الصوفية تختلف عن اللغة الدينية فالأولى وصفها "أدونيس" بأنها لغة حب تختلف عن لغة الدين الشرعية؛ لأنه يراها لغة فهم، فاللغة الصوفية تأتي من تجربة يعيشها هذا المتصوف في حد ذاته.
- أن الحالة السيكولوجية (النفسية) للمتصوفة لها دور في إنتاج الألفاظ التي يتلفظ بها الصوفي.
- للخطاب الصوفي خصائص تميزه عن بقية الخطابات الأخرى؛ السياسية، أو الفلسفية، أو الأدبية، ومن بين هذه الخصائص اللغة الرمزية المليئة بالدلالات والإيحاءات، وهذا ما أكسب هذه اللغة رؤية رمزية كلغة "البسطامي" و"ابن عربي" و"الحلاج" و"الجنيد" وغيرهم.
- ينبع الرمز الصوفي من معرفة الصوفي وبلاغته، ويختلف هذا الذوق من متصوف إلى آخر، فتعبير الصوفي يكون بلغة روحية ووجدانية زاخرة بالإشارات والرموز.
- حاول الروائي الجزائري "محمد مفلاح" أن يوظف مكونات الخطاب الصوفي في روايته سفر السالكين؛ من مصادر ومعجم ومدونات ومدائح وشخصيات وغيرها، إضافة إلى تطرقه لبعض الحوادث التاريخية وذكر بعض شخصيات كبار الصوفية كابن عربي والجنيد...إلخ.
- عمل أيضا على توظيف العديد من الرموز والمصطلحات الصوفية كمصطلح الذكر والورد والوجود والعزلة والحضرة والضريح والقبب وغيرها من المصطلحات الأخرى التي تزخر بها هذه الرواية فهي رواية صوفية بامتياز.

هوامش وإحالات المقال

[1] ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب، القاهرة، 1971، 33/1.

[2] نيكلسون: في التصوف الإسلامي، تر: أبو العلا عفيفي، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، 1969م، ص 90.

[3] أدونيس: الصوفية والسريالية، دار الساقي، (ط.3)، (د، ت)، ص 24.

[4] أدونيس: الصوفية والسريالية، ص 25.

[5] ينظر: آمنة بلعلى: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، مدوحة تيزي وزو، (د.ط)، 2009، ص 20.

[6] المرجع نفسه: ص 12.

[7] جون بول سارتر: الوجود والعدم، تر: عبد الرحمن بدوي، منشورات دار الآداب بيروت، (ط.1)، 1966، ص 601.

[8] أسماء خوالدية: صرعي التصوف الحلاج وعين القضاء الهمذاني والسهروردي، نماذج-دراسة تحليلية نقدية تستلهم مفاهيم نظرية التقبل، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، (ط.1)، 2014، ص 123.

[9] عبد الرحيم الإدريسي: استبداد الصورة شاعرية الرواية العربية، تقديم محمد أنقار، منشورات مركز الصورة، تطون، (ط.1)، 2009م، ص 55.

[10] المرجع نفسه: ص 55.

[11] السعيد بوسقطة: الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر (ط.2)، 2009م، ص 11.

[12] المرجع نفسه: ص 8.

[13] أسماء خوالدية: الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة الجزائر (ط.1)، 2014، ص 23 .

[14] المرجع نفسه: ص 25.

[15] ناجي حسين جودة: المعرفة الصوفية، دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة، دار الهادي، بيروت،(ط.1)، 2006م ص 129.

[16] أسماء خوالدية: صرعى التصوف، ص 237.

[17] المرجع نفسه: ص 236.

[18] أسماء خوالدية: صرعى التصوف، ص 238.

[19] ميشال زكريا: الألسنية علم اللغة الحديث، المؤسسة الجامعية للدراسات بيروت، 1983، ص 180.

[20] ينظر: أسماء الخوالدية: صرعى التصوف، ص 238.

[21] المرجع نفسه: ص 238.

[22] أسماء خوالدية: الرمز الصوفي، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط1، 2014، ص 23.

[23] أسماء خوالدية: الرمز الصوفي، ص 88.

[24] محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، دار العودة، بيروت(د.ط)، 1983، ص398.

[25] رفيق العجم: موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، (ط:1)، 1999، ص411.

[26] أسماء خوالدية: الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا، ص26.

[27] المرجع نفسه، ص 26.

[28] ابن عربي: الفتوحات المكية، ج،1، ص 188.نقلا عن : المرجع نفسه، ص26.

[29] أسماء خوالدية: الرمز الصوفي، ص 27.

[30] محمد مفلاح: سفر السالكين، دار الكوثر للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2014، ص 92.

[31] الرواية: ص 91.

[32] الرواية: ص 95.

[33] الرواية: ص 95.

[34] الرواية: ص 95.

[35] الرواية: ص 100.

[36] الرواية: ص 100.

[37] الرواية: ص 103.

[38] الرواية: ص 106.

[39] الرواية: ص 106.

[40] الرواية: ص 95.

[41] أسماء خوالدية: الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا، ص49.

[42] عبد الرزاق الكاشاني: معجم اصطلاحات الصوفية تح: وتقديم وتعليق عبد العالِ شاهين، دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (ط:1)، 1992م، ص11.

[43] عبد الرزاق الكاشاني: معجم اصطلاحات الصوفية، ص11.

[44] المرجع نفسه: ص 12.

[45] ممدوح الزوبي: معجم الصوفية، دار المسيرة، بيروت، ط2، 1987، ص 195.

[46] المرجع نفسه: ص429

[47] المرجع نفسه: ص429

[48] المرجع نفسه: ص 433.

[49] المرجع نفسه: ص 426.

[50] ممدوح الزوبي: معجم الصوفية، ص 289.

المصادر والمراجع:

1- ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب، القاهرة، 1971، 33/1.

2- نيكلسون: في التصوف الإسلامي، تر: أبو العلا عفيفي، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، 1969.

3- أدونيس: الصوفية والسريالية، دار الساقي، (ط.3)، (د، ت).

4- آمنة بلعلى: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، (د.ط)، 2009.

5- جون بول سارتر: الوجود والعدم، تر: عبد الرحمن بدوي، منشورات دار الآداب بيروت، (ط.1)، 1966.

6- أسماء خوالدية: صرعي التصوف الحلاج وعين القضاء الهمذاني والسهروردي، نماذج-دراسة تحليلية نقدية تستلهم مفاهيم نظرية التقبل، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، (ط.1)، 2014.

7- عبد الرحيم الإدريسي: استبداد الصورة شاعرية الرواية العربية، تقديم محمد أنقار، منشورات مركز الصورة، تطوان، (ط.1)، 2009.

8- السعيد بوسقطة: الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر (ط.2)، 2009.

9- أسماء خوالدية: الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة الجزائر (ط.1)، 2014.

10- ناجي حسين جودة: المعرفة الصوفية، دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة، دار الهادي، بيروت،(ط.1)،2006.

11- ميشال زكريا: الألسنية علم اللغة الحديث، المؤسسة الجامعية للدراسات بيروت، 1983.

12- أسماء خوالدية: الرمز الصوفي، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط1، 2014.

13- محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، دار العودة، بيروت(د.ط)، 1983.

14- رفيق العجم: موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، (ط:1)، 1999.

15- محمد مفلاح: سفر السالكين، دار الكوثر للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2014.

16- عبد الرزاق الكاشاني: معجم اصطلاحات الصوفية تح: وتقديم وتعليق عبد العالِ شاهين، دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (ط:1)، 1992.

17- ممدوح الزوبي: معجم الصوفية، دار المسيرة، بيروت، ط2، 1987.